Kirkuk University Journal of Humanities Studies

مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية

https://kujhs.uokirkuk.edu.iq/

Organic Unity In Pre-Islamic Poetry

Between Tradition And Modernization

Critical Vision

Dr. Rehab Al Kilani
Zayed University

Dr. Zakia Mohammed Khaled
Zayed University

تاريخ الارسال 3-9-2024	تاريخ التعديل 11-10-2024	تاريخ القبول : 11-10-2024

Abstract

The study of the issue of unity in the Arabic poem is not just theoretical, but an attempt to deeply understand the structure of the Arabic poem and how it evolves over time, reflecting the development of Arab critical thought and its impact on civilizational and cultural changes. Hence, the purpose of this study is to discuss the views of traditional and modern critics on the issue of unity in the Arabic poem, as we find that critics did not always agree on a comprehensive definition, and therefore this concept remained fluid, which led to the devaluation of some poems when studied with a different logic and from a different definition perspective.

Based on this methodology of tracking the most prominent statements on the issue of unity, the research was divided into two sections: The first considers the opinions of the ancients, and the second considers the opinions of modern critics, in order to search for similarities and differences, if any, in an attempt to reach a formulation that converges the opinions put forward, presenting an integrated vision of the concept of unity that helps in a deeper understanding of the Arab poetic heritage and its critical development.

Keywords: Arabic poem. Organic unity in poetry. Ancient critics. Modern critics.

الوحدة العضوية في قصيدة الشعر الجاهل

بين التقليد والتحديث

رؤية نقدية

د. رحاب الكيلاني [1]
جامعة زايد

د. زكية محمد خالد [2]
جامعة زايد

ملخص

إن البحث في قضية الوحدة في القصيدة الجاهلية ليس مجرد دراسة نظرية، بل هو محاولة لفهم عميق لبنية القصيدة العربية وكيفية تطورها عبر الزمن، مما يعكس تطور الفكر النقدي العربي وتأثره بالمتغيرات الحضارية والثقافية، ومن هنا فإن غاية هذه الدراسة البحث بين آراء القدماء والمحدثين في قضية الوحدة في القصيدة العربية، إذ نجد أن النقاد لم يتفقوا على تعريف مانع جامع لها، ولذلك ظلّ هذا المفهوم مائعا، وعائما، وأدى بذلك إلى التقليل من شأن بعض القصائد حين دراستها بمنطق مخالف، ومن منظور تعريف مغاير.

وانطلاقا من هذه المنهجية في تتبع أبرز الأقوال حول قضية الوحدة العضوية في القصيدة الجاهلية، فقد انقسم البحث إلى قسمين: الأول يُعنى بآراء القدماء، ويعنى القسم الثاني بآراء النقاد المحدثين، من أجل البحث عن مواضع التشابه والاختلاف إن وجدت، في محاولة للوصول إلى صياغة تُقارب الآراء المطروحة، تهدف لبلورة رؤية متكاملة لمفهوم الوحدة في القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، وتساعد في فهم أعمق للتراث الشعري العربي وتطوره النقدي.

الكلمات المفتاحية: القصيدة العربية، الوحدة العضوية، النقاد القدامى، النقاد المحدثون، الشعر.

[1] دكتور رحاب الكيلاني – جامعة زايد.
[2] دكتور زكية محمد خالد – جامعة زايد

المقدمة

كثر الجدل قديماً وحديثاً حول مفهوم الوحدة العضوية، وبرزت هذه القضية كإحدى القضايا الشائكة، التي تلقفها النقاد من جوانب عدة؛ مضمونها ومدلولها، وملامح وجودها في النقد العربي القديم، وتطبيقاتها على الشعر العربي القديم، وفي المقابل فقد ظهرت أصداؤها في بداية القرن العشرين، فبرز جدل كبير حول بنية الشعر العربي وقضايا الوحدة العضوية والموضوعية. وقد أشعل هذا النقاش النقاد العرب الذين بدأوا متأثرين باطلاعهم على الثقافات الغربية، ومبادئ المدرسة الرومانسية في المقارنة بين العناصر البنيوية في الشعر الغربي والعربي. وكان مفهوم الوحدة العضوية من بين أبرز الموضوعات المثيرة للجدل في هذا الخطاب. وقد أصبح هذا المفهوم، وهو مفهوم مركزي في المدرسة الرومانتيكية، إحدى السمات الأولية لحركة الحداثة في الشعر العربي. كل ذلك بسبب التأثر المباشر بالنقد الغربي، ما أدى إلى ظهور الحركات التجديدية في الأدب العربي والتي أولي النقاد فيها جهودهم إلى تقييم الشعر العربي القديم مستعينين بالمفاهيم التي استمدوها من الأدب الغربي الذي بشكل كبير بالوحدة العضوية في العمل الأدبي ونتيجة لذلك، ظهرت مجموعة واسعة من الآراء والأحكام حول وجود الوحدة وأهميتها في الشعر العربي، مع التركيز بشكل خاص على الشعر الجاهلي، كأفضل نموذج يمكن دراسته، كوحدة متكاملة، متعددة العناصر والبنى، يخدم كل عنصر منها غرضاً محدداً.

وقد أصبح الجدل حول الوحدة في شعر الجاهلية، على وجه الخصوص، نقطة محورية في النقد الأدبي المعاصر. وهو يمثل قضية فلسفية تتعمق في جوهر البنية الشعرية وتماسكها. فبينما درس النقاد الأشكال والموضوعات التقليدية لشعر الجاهلية، تساءلوا عن مدى التزام هذه الأعمال القديمة بمبادئ الوحدة العضوية أو ابتعادها عنها. ولم يقتصر هذا الفحص على تسليط الضوء على التعقيدات الكامنة في

الشعر العربي الكلاسيكي فحسب، بل سلط الضوء أيضًا على الآثار الأوسع نطاقًا لفهم تطور التقاليد الأدبية العربية وتحديثها.

ومن هذا المنطلق يُعدّ مفهوم " الوحدة في الشعر الجاهلي من أخطر قضايا النقد الحديث وهي قضية فلسفية في جوهرها، وهي من أهم القضايا التي جاءت إلى الشعر مع ظهور نظرية المعرفة في الفلسفة" (عبدالرحمن، 1976: 192) وهذا التفاوت في الآراء مبعثه اختلاف الرؤى بين النقاد للقصائد، ومدى تفاعل كلٍّ منهم مع تياري التجديد والتقليد، وقد ارتكز كلا الفريقين على قواعد ومقررات، دعموا بها آراءهم حتى أضحت هذه القضية جدلية من أعرق الجدليات في الأدب العربي، ومن أهم الأسباب التي جعلتهم يختلفون فيها؛ هو عدم وضوح مفهوم محدد لمصطلح الوحدة وتفسيرها، فجاءت محاولة التفسير منصبة على فهم نوع الوحدة، فهل هي وحدة عضوية، أم معنوية، أم نفسية، أم موضوعية، أم شعورية؟ في حين ذهب فريق آخر من النقاد إلى الرأي القائل بأن القصيدة الجاهلية رغم تعدد موضوعاتها وتنوعها إلا أنها تبقي متماسكة الأجزاء بفضل الرابط النفسي الذي يوحدها .

وقد أطلق النقاد مصطلح الوحدة العضوية بشكل عام على تمام القصيدة وارتباط أجزائها ارتباطا عضويّاً. أشار الدكتور محمد مندور إلى أن وحدة القصيدة لها قصة طويلة في أدبنا العربي قديمه وحديثه وأن مفهومها ظل غامضا وأن بداية هذه المفهوم كان يقصد به أحيانًا وحدة الغرض (مندور، 1997:113)، ذلك أن خليل مطران حينما نبّه إلى أنه لا يوجد في الشعر العربي ارتباطٌ بين معانيه ضمن القصيدة الواحدة، قد فتح بذلك بابًا للبحث عن الموضوعات المختلفة التي تتوزع داخل القصائد الجاهلية، لكن النظم في الغرض الواحد يبدو بديهيًّا، ومعقولًا؛ لأن الشاعر عندما بدأ بقرض الشعر كان ينظمه في

حاجة معينة أو نتيجة دافع محدد، لذلك كانت الأغراض محددة قبل الشروع في النظم، وعليه فقد سيطرت وحدة شعورية منسجمة على مناخ القصائد عمومًا.

ولذا تتجلى أهمية دراسة مفهوم الوحدة العضوية في الشعر العربي خاصة في الشعر الجاهلي؛ من عدة نواحٍ، إذ أنه أمر أساسي لفهم السياقات التاريخية والثقافية للتقاليد الأدبية العربية، وكذلك لإدراك كيفية تطور الأشكال والموضوعات الشعرية عبر العصور، حيث يمكن للباحثين من خلال دراسة مبادئ الوحدة في الشعر العربي القديم أن يكتسبوا نظرة فاحصة في العمليات الإبداعية للشعراء القدامى والقيم الجمالية التي شكلت أعمالهم. بالإضافة إلى ذلك، تسهم هذه الدراسة في إثراء الخطاب حول النظرية الأدبية والنقد الأدبي، حيث تقدم منظورًا فنيًّا للتقاطعات بين التقاليد الأدبية قديماً وحديثاُ.

وتتبع هذه الدراسة منهج التحليل الأدبي لاستكشاف التفسيرات والتطبيقات المختلفة للوحدة في الشعر العربي الكلاسيكي، كما تتضمن مراجعة شاملة للمصادر الأولية والثانوية، بما في ذلك المقالات النقدية والنصوص التاريخية والمختارات الشعرية، من خلال مقارنة آراء النقاد العرب البارزين قديما وحديثا، هادفة بذلك توفير فهم شامل لتطور الوحدة العضوية في الشعر العربي عند النقاد العرب.

أولًا– الوحدة عند النقاد القدامى

لم يدرس النقاد القدامى الوحدة العضوية بالمفهوم المتعارف عليه عند النقاد، إذْ لم تُعرف القصائد بوصفها وحدة كاملة أو عملًا فنيًّا متكاملًا، بل كان جُلّ اهتمامهم منصبّا على البيت الواحد أو البيتين، وإن كانوا قد تحدثوا في إشارات عن تلاحم أجزاء القصيدة، وعن التناسب والارتباط بين أبيات القصائد، وكذلك

تشبيه بعضهم لها بجسم الكائن الحي الذي يتأثر العضو فيه بما يلحق باقي الأجزاء، وهذه الرؤية تعكس طبيعة العصر الذي كانت فيه الأحكام النقدية مستمدة من البيئة الحسية المحيطة .

وأولى الإشارات التي وصلت إلينا من التراث النقدي القديم، المتعلقة بالوحدة داخل القصيدة، نجدها عند الجاحظ حين يقول: "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فيعلم بذلك أنه أفرغ إفراغًا واحدًا، وسبك سبكًا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان" (الجاحظ، 1997: 76) فالجاحظ هنا يلتفت إلى ضرورة أن يكون العمل متسقًا أوله مع آخره، منسجمًا متلاحمًا، يطرح فكرة الترابط والتلاحم باعتبارها إحدى معايير الجودة في القصيدة العربية، فأجود القصيد ما يبدو وكأنه جسد واحد متلاحم يرتبط بعضه بكله، وينساب على اللسان ويتدفق بسلاسة وعذوبة ومن ذلك قصيدة زهير:

سئـمـت تكاليف الحياة ومنْ يعشْ ثمـانيـن حولاً، لا أبالك، يسأمِ

رأيت المـنايا خبط عشواء من تصب تمته، ومــن تخطئ يُعمّر فيهرمِ

ومـــن لا يصانع في أمور كثيرة يُضرّس بـأنيـاب، ويوطأ بمنسمِ

إلى آخر القصيدة. (ديوان زهير: 70/1).

وقد تابع ابن قتيبة الجاحظ في البحث عن العوامل النفسية والبيئية التي أنتجت بنية القصيدة الجاهلية على الشكل المعروف فيقول: "وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببًا، لذكر أهلها الظاعنين عنها؛ إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن، خلاف نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وألم الفراق،

وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه؛ لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربًا فيه بسهم حلال أو حرام، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا التعب والسهر، وسرى الليل، وحر الهجير، وانضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وعزه للسماح، وفضّله عن الأشباه". (الدينوري، 1967:74) وقد عدّ ابن قتيبة في كتابه: الشعر والشعراء، حينما تتبع الوحدة النفسية في القصائد الجاهلية أن من علامات جودتها هذا التلاحم والجو النفسي المنسجم، وقد ذكر غير ذي مرة أن القصائد التي تخلو من الانسجام هي قصائد متكلفة، ومنها قصائد زهير والحطيئة، وقد رأى أن التكلّف المتأتي من طول التفتيش وإعادة النظر بعد النظر يدلّ على المعاناة والصعوبة في العملية الإبداعية ويترك أثره كالحوليات، وهذه الآثار ليست دائما بالحسنة، وقد استشهد ابن قتيبة بقول عديّ بن الرقاع وهو يصف بناء القصيدة (العاملي،1987 : ج1 /9):

وقصـيدة قد بتّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها

نظر المثقف في عيوب قناته حَتّى يُقيمَ ثِقـافُهُ مُنآدَها

إن ابن قتيبة يرى ضرورة الوحدة العضوية بين أجزاء القصيدة ويلتمسها في الوحدة النفسية التي تبدو كالروح التي تسري بين أجزاء القصيدة بتعدد أغراضها، فقد اعتبر التلاحم والترابط بين أجزاء القصيدة من معايير المفاضلة بين الشعراء وكل ما عداه تكلف وتصنع يقول: "وتبين التكلف بأن ترى البيت مقرونا بغير جاره، ومضمونا إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجا لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: بم

ذلك؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه" (الدينوري، 1423: 90/1) وإن كان بعض الدارسين قد فهم أن ابن قتيبة قد أوجب على الشعراء أن يتقيدوا بهذه الضوابط والتقاليد، واعتبرها مقياسًا لإجادة الشاعر من ذكر الأغراض المتعددة ووجوب التناسب فيها وعدّ ذلك تفككاً، فإن الأستاذ إحسان عباس يرى أن القصيدة –كما وصفها ابن قتيبة– تتضمن لونًا من ألوان الوحدة وقد عبرت هذه الوحدة عن نفسها على صعيدين: الأول: التناسب بين الموضوعات في القصيدة الواحدة، والثاني: الوحدة المعنوية التي تنتظم أبيات القصيدة، ويرى (فان جيلدر) أن ما طرحه ابن قتيبة يعدّ عملًا متقدمًا يفوق كثيرًا من الآراء النقدية السابقة عليه، وأن أهم ابتكار قام به ابن قتيبة يتمثل "في محاولة تسويغ التواصل في القصيدة، وتفسير الروابط بين أجزائها فالقصيدة تشبه معزوفة من عدة حركات". (مراشدة، 2006: 39) إذ إنه قد سعى إلى إيجاد رابطة نفسية توثق الصلة بين هذه الأغراض المختلفة، وبين حياة الشاعر القديم، وتفسر اجتماع كل هذه الأغراض المتباينة في القصيدة الشعرية، وبعبارة أخرى، إنها محاولة لإضفاء نوع ما من الوحدة الفنية على البناء الشعري المتعدد الأغراض والموضوعات والمواقف.

ثم جاء ابن طباطبا العلوي الذي يكاد أن يعد أقرب القدامى لمفهوم الوحدة العضوية ويحمل تصوراً آكثر نضوجاً، جاء ليطوّر موقف ابن قتيبة من البناء الكلي للقصيدة في الاهتمام بترابط الأجزاء وتلاحمها، فهو يوجه الشاعر إلى القصيدة المتكاملة: "إن أحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظامًا يتسق به أوله مع آخره على ما ينسق به قائله، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، نسجًا وحسنًا وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معان وصواب تأليف، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصفه إلى غيره من المعاني خروجًا لطيفًا حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة

إفراغًا لا تناقض في معانيها، ولا في مبانيها، ولا تكلف في نسجها، تقتضي كل كلمة ما بعدها" (العلوي، 1985: 213).

أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي

فداؤك ما أبقيت منى فإنه حشاشة حب في نحول عظام

صلي مغرما قد واتر الشوق دمعه سجاما على الخدين بعد سجام

فليس الذي حللته بمحلل .....

يقتضي أن يكون تمامه:

..... وليس الذي حرمته بحرام

فالقصيدة عند ابن طباطبا كالسبيكة المفرغة، وإن تعددت في موضوعاتها فإنها تمثل وحدة بناء متكامل، وعلى الشاعر أن يدخل في غرض، ثم يخرج منه، ليعود إلى غرض ثانٍ دون أن يحدث تناقضًا في المعاني أو المباني، ودون تكلف في النسيج وهذا ما يتابع القول فيه "ويكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجًا لطيفًا، حتى تخرج القصيدة مفرغة إفراغًا.. لا تناقض في معانيها ولا وهيً في مبانيها ولا تكلف في نسجها"(العلوي، 1985: 213)، وبهذا يوفر الشاعر شروط الإجادة في قصيدته وهو ما يطلق عليه: تلاحم الأجزاء، فهو يوجه إلى وحدة البناء في القصيدة، فلا ضير في تعدد الموضوعات داخل القصيدة الواحدة؛ لكن من الضروري الحفاظ على انسجامها وحسن التخلص من موضوع إلى آخر لأن هذا الذي يحقق في القصيدة وحدتها الذي أشار إليها بقوله "كأنها مفرغة"، وهو الذي يحقق وحدة البناء فيها.

ومما ذكره الدكتور يوسف بكار في كتابه بناء القصيدة العربية أن الحاتمي اتبع ابن طباطبا في رأيه ورأى كذلك أن القصيدة مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، وباينه في صحة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراسًا يجنبهم شوائب النقصان، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها، وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، أو الخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء". (بكار، 1979: 393) فالحاتمي هنا كان يتحدث عن ضرورة وصل أجزاء القصيدة بعضها ببعض، بحيث تبدو منسجمة غير متنافرة، متصلة غير منفصلة. ونلاحظ أنهم جميعاً مهما تعددت الأساليب يحلقون حول موضوع وحدة البناء في القصائد ذات الأغراض المتعددة.

والوحدة بهذا المفهوم تؤدي معنى التكامل والاعتدال والانسجام، ويرى الدكتور بكار في معرض شرحه لنص الحاتمي، أن كامل النص يدل على أن الحاتمي لا بدّ وقد اطلع وتعرف على وحدة العمل الأدبي عند أرسطو، كما أنه يتحدث هنا عن التخلص ويرسم الطريقة المثلى له؛ حيث يقول: " الحاتمي إذن لم يكن يتحدث عن وحدة القصيدة فضلًا عن سوء إفادته من وحدة أرسطو بل كان يتحدث عن ضرورة وصل أجزاء القصيدة ببعضها وصلًا يجعلها متناسبة غير بعيدة". (بكار، 1979: 395) ففهم الحاتمي للوحدة كما جاءت عند أرسطو يبدو قاصرًا، أو سطحيًّا، ويرتكز على التناسب الخارجي لبناء القصيدة، ولا يختلف عن رأي غيره من النقاد في موضوع حسن التخلص والانتقال من غرض إلى آخر دون الإخلال بنظام القصيدة.

غير أن النقاد القدامى كانوا قد انقسموا على أنفسهم حيال الشكل الفني للقصيدة، فبينما تمسك المحافظون بالشكل الفني الذي ورثته القصيدة عن العصر الجاهلي، ثار المجددون عليه، وطالبوا الشعراء بخلق نوع من الوحدة المعنوية، بين أبيات القصيدة الواحدة كما رأينا عند الحاتمي الذي يطالب بأن تتبع الخطبة والرسالة في التحام أجزائها.

ولعل اقتراح الحاتمي بضرورة ربط أجزاء القصيدة ببعضها البعض نابع من رغبته في تحقيق التوازن والانسجام في بناء القصيدة، مما يعكس فهمه للقصيدة كوحدة متكاملة. وهذا الرأي قد ينبع من اعتقاده أن الارتباط العضوي بين أجزاء القصيدة يعزز قوتها الفنية ويجعلها أكثر تأثيراً. ومع ذلك فقد كان فهمه لمفهوم الوحدة المعنوية كما قدمها أرسطو محدوداً، مركزاً على التناسب الخارجي بدلاً من التكامل الداخلي والعمق الفني. وقد تكون هذه النظرة القاصرة سبباً في عدم تطويره مفهوماً أعمق للوحدة العضوية التي تشمل التكامل الداخلي للمعاني والأفكار، وهو ما سعى إليه النقاد الحداثيون لاحقاً.

هذا المفهوم للوحدة يمكن أن يكون له ارتباط بالشعر القصصي الجاهلي، حيث تبرز شخصية الشاعر كعنصر أساسي في تشكيل الوحدة العضوية للقصيدة، فالملاحظ أن "الشخصية الراوية (أنا الشاعر) تشكل إحدى شخوص القصة الرئيسة، وقد تظهر شاهدة على الأحداث من خلال السرد الذاتي، وأحيانا تقف خارج القصة فلا تظهر على مسرح الحدث فتنقل الحدث من خلال حوار شخصية إزاء شخصية أخرى ومن خلال السرد الموضوعي" (حياوي، 2021: 2)، هذا التداخل بين الشاعر والقصة يمنح القصيدة الجاهلية ترابطاً فريداً يجعل من تعدد الموضوعات جزءاً من وحدة سردية أوسع، حيث تتشكل الأحداث وتجارب القبيلة من خلال منظور الشاعر، وبذلك يصبح الشاعر الرابط الذي يوحد بين أجزاء

القصيدة ويضفي عليها معنى وشكلاً متكاملاً، وهو ما يتماشى مع مفهوم الوحدة العضوية الذي سعى الحاتمي لتحقيقه.

وقد أشار ابن رشيق القيرواني إلى المذهبين، رافضًا رأي المحدثين، معللًا ذلك بأنه لا يناسب الشعر الغنائي، ولكنه يناسب الفن القولي الذي يعتمد على السرد أو الحكاية، وهذا لا يتحقق، إلا في النثر، والشعر القصصي؛ إذ يقول: "ومن الناس من يستحسن الشعر مبينًا بعضه على بعض، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائمًا بنفسه، لا يحتاج إلى ما قبله، ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك، فهو عندي تقصير، إلا في مواضع معروفة مثل الحكايات وما شاكلها، فإن بناء اللفظ على اللفظ أجود من جهة السرد". (القيرواني، 1981: 261) وعليه فإن ابن رشيق لم يدعُ إلى التلاحم اللفظي بين الأبيات والترابط الوثيق بينها واستحسن أن يكون البيت قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله أو إلى ما بعده، فعدّ ذلك تقصيرًا.

إنّ القيرواني هنا يعبر عن وجهة نظر خاصة تدعو إلى تفضيل استقلال كل بيت بنفسه، أو الوحدة العضوية للبيت، بحيث لا يكون المعنى مرتبطاً بما قبله أو بعده، ولا يعتمد في فهم الفكرة على الأبيات السابقة واللاحقة، ويرى أن جودة الشعر تكمن في وصوله لهذا المستوى مستثنياً من ذلك الشعر القصصي أو المقاطع القائمة على القصص الحكايات. فوحدة البيت الواحد قد تكون ميزة في الشعر الغنائي حيث يعزز ذلك من قوة التعبير وتأثيره، لكن من جهة أخرى، لا يمكن إنكار أهمية الترابط والوحدة العضوية في القصيدة القصصية، حيث يعتمد السرد على التسلسل والترابط بين الأحداث والمواقف.

وإن كان بعضهم يرى أن ابن رشيق يقصد بقوله: (ومن الناس) الحاتمي، فإن الدكتور بكار، يرى أنه يقصد بكلامه أرسطو مباشرة؛ لأنه تحدث عن الحكايات وعن الشعر القصصي ولأن مذهب الحاتمي في

وصل الأجزاء والتخلص في القصيدة لا يختلف عن مذهب ابن رشيق وغيره من النقاد؛ حيث إنه قد أشار بعد ذلك إلى عيوب المطالع ومذاهب الشعراء في الافتتاح والخروج من غرض إلى آخر والاستطراد وحسن التخلص والانتهاء، فهو يقول: "فإن كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخر قفلًا عليه". (القيرواني، 1981: 239) فالافتتاح يجب أن يكون له علاقة بالغرض الذي يتناوله الشاعر والخاتمة أبقى في النفس وأعلق، إذن هي وحدة وتكامل وانسجام، تؤدي مطالع القصيد إلى خواتيمه.

ونلحظ أن فهم ابن رشيق لبنية القصيدة يتسم بالتوازن بين استقلالية البيت الواحد والترابط بين الأجزاء في مواضع معينة، وهذه رؤية متقدمة للشعر تتيح له التكيف مع مختلف الأنواع والوظائف الفنية، وهذا بدوره يعزز فكرة الوحدة والتكامل في القصيدة الواحدة.

وبالانتقال إلى موقف ابن الأثير نجد أنه لم يتحدث صراحة عن الوحدة العضوية في القصيدة، فالمصطلح في ذلك الوقت لم يكن مقعّدًا، إنما تحدث عن التضمين الذي عدّه النقاد عيبًا فقد خالفهم ابن الأثير في هذا الموقف وقال: "وهو عندي غير معيب، لأنه إذا كان سبب عيبه أن يعلق البيت الأول على الثاني، فليس ذلك بسبب يوجب عيبًا". (الحاتمي، 1979: 215) وإنما هي بلاغة وحسن تخلص، وذكر لذلك أمثلة وأن العرب استعملته كثيرًا ومنه قول امرئ القيس (الشيباني، 2001 :155):

فقلتُ لَـهُ لمـّا تمَطى بِصُلبِهِ وأردف أعجازا ونـاءَ بكَلْكَلِ

ألا أيّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي بصُبحٍ وما الإصباح منْكَ بأمثَلِ

ويكمل ابن الأثير عرض آرائه عن التضمين أو الوحدة وتعلق المعاني بالبيت والبيتين والثلاث، ويعرض لذلك أمثلة عديدة، كما أن له رأيًا صريحًا يوافق سابقيه من النقاد القدامى، وهو قوله في حسن التخلص:

"أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فنيًّا هو فيه؛ إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببًا إليه فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلامًا آخر". (الحاتمي، 1979: 215) ومن هذه الأبيات قول مسلم بن الوليد:

أَجَدُّكِ ما تَدرينَ أَن رُبَّ لَيلَةٍ كَأَنَّ دُجاها مِن قُرونِكِ يُنشَرُ

صَبَرتُ لَها حَتّى تَجَلَّت بِغُرَّةٍ كَغُرَّةِ يحيى حينَ يُذكَرُ جَعفَرُ

وهو مذهب المحدثين في حسن التخلص والانتقال من غرض إلى غرض، وقد كان مذهب الفحول الأوائل استعمال (عدّ عن كذا، إلى كذا) ومنه قول زهير في قصيدته التي مطلعها لمن الديار بقنة الحجر؛ إذ ينتقل إلى غرض المدح فيقول (ابن أبي سلمى، ج 31/1).

لمَـنِ الدِيارُ بِقُنَّةِ الحِجرِ أَقوَينَ مِن حِجَجٍ وَمِن شَهرِ

لَعِبَ الزَمانُ بِها وَغَيَّرَها بَعدي سَوافي المورِ وَالقَطرِ

قَفراً بِمُندَفَعِ النَحائِتِ مِن ضَفوى أُلاتِ الضالِ وَالسِدرِ

دَع ذا وَعَدِّ القَولَ في هَرَمٍخَيرِ البُداةِ وَسَيِّدِ الحَـضرِ

وبالانتقال إلى رأي صاحب نظرية النظم عبدالقاهر الجرجاني، نجد رؤية مغايرة ومحاولة نقدية جادة في فهم الوحدة العضوية في القصيدة عند القدماء؛ إذ يربط مفهوم النظم بتعلق الكلام بعضه ببعض وجعل بعضه بسبب بعض، لكن حديث الجرجاني عن الوحدة وتطبيقاته، لا يشمل القصيدة بأكملها، إنما يتعلق الأمر بالبيت أو البيتين، وهذا ما يبينه الأستاذ شكري عيّاد إذ يقول: "لم يكن في العمل الأدبي أو القصيدة، بل قصره صاحبنا على الجملة فيما نص على ذلك صراحة، وعلى البيت أو البيتين أو الثلاثة

فيما تدل استشهاداته". (بكار، 1979: 400) ويناقش الأستاذ شكري عياد هذا الرأي ويورد الأسباب التي وقفت حائلًا أمام عبد القاهر الجرجاني لسحب نظرية النظم على القصيدة كاملة وجعلته يتوقف عند البيت والبيتين، وهي: أن الوحدة التي وصفت في كتاب الشعر، الوحدة التي تنتقص إذا نقص جزء واحد أو غير لم توجد في القصيدة العربية؛ حتى تكون أمام عبد القاهر نماذج تعينه على فهم الوحدة في نطاق أوسع من الجملة، كما أن النحو الذي أسهم في فكرة النظم بنصيب كبير، لم ينظر في القصيدة أو المقطوعة، بل نظر في الجملة، ويبدو هذا منطقيًّا وملائمًا لقضية الجرجاني الأساسية وهي الكشف عن إعجاز القرآن الكريم، فلم يكن هناك من داعٍ لتتبع أبيات قصيدة بأكملها، وإنما الوقوف على الأبيات التي تخدم نظرية النظم.

ولم يتوقف الأمر فقط عند هذه الآراء، إذ نجد أن للنقاد أيضًا محاولاتهم في تقسيم القصيدة العربية القديمة، ولعلّ تقسيم حازم القرطاجني للقصيدة العربية القديمة، يوضح لنا تسلسل الوحدة العضوية؛ حيث يقول الدكتور جابر عصفور: إن "الوحدة عند حازم هي (وحدة التسلسل) التقليدية التي يفضي فيها موضوع إلى آخر، أو يفضي فيها غرض إلى غرض، بعلاقة شكلية هي (التخلص والاستطراد) بحيث تتركب القصيدة فى النهاية من أقسام أساسية، يصل ما بينها تلطف في الانتقال من قسم إلى قسم، وبحيث يتركب كل قسم من مجموعة من الفصول، تطول أو تقصر، لكنها تتسلسل في التدرج حتى يكتمل الغرض فيكتمل القسم، ثم توصل وصلَ تخلصٍ بالغرض التالي، حتى نصل إلى الخاتمة، وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن القصيدة عند القرطاجني تتكون من أغراض أساسية، يتفرع كل غرض منها إلى مجموعة من الفصول، تتسلسل فيما بينها بعلاقة تناسب، شبيهة بالعلاقة التي تصل حبات العقد، وتشبيه القصيدة بالعقد تشبيه يشي بالعلاقة بين الفصول، بحيث يصبح لكل فصل استقلاله في المعنى والمبنى

كحبة العقد سواء بسواء، يمكن أن تنفصل الحبة الواحدة عن النسق، فلا تفقد كثيرًا من خصائصها المستقلة، وإن أخل انفصالها بتماسك العقد وتناسبه". (عصفور، 2003: 372).

وبهذا يكون حازم القرطاجني قد اقترب كثيرًا من مفهوم البناء الفني للقصيدة وفق ما يرى النقد الحديث، وكانت نظرته أعمق وأشمل وأكثر دقة من نظرة سابقيه ومعاصريه، فهو كما يرى الدكتور بكار: "أول ناقد عربي قديم يتحدث عن الوحدة في القصيدة كاملة، لا في الجملة والعبارة أو البيت والبيتين، وأول ناقد يكون التحام الأجزاء والتئامها عنده في القصيدة كلها، وهذا خروج على قاعدة من قواعد عمود الشعر". (بكار، 1979: 411).

وكان حازم القرطاجني قد فسر الانتقال من فن إلى آخر مباين له من غير جامع ملائم، تفسيرًا نفسيًّا، معللًا ذلك بالقول إن النفس تجد نفورًا في الانتقال من موضوع إلى آخر، ويعد أحسن أنواع التخلص ما كان متدرجًا، ويستحسن أن تكون معاني أواخر القصائد مناسبة للغرض. يقول: "ومما يجب اعتماده في التخلص أن يجهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص" (القرطاجني، د.ت: 321)، فهو يركز على التلطف في الخروج من بيت إلى بيت ومن معنى إلى معنى ومن غرضٍ إلى آخر.

ومن أجود الأمثلة التي يذكرها النقاد في حسن التخلص، ما جاء في شعر النابغة الذبياني (الذبياني، ج 31/1).

وكفكفتُ منـــــي عبـــــــرةٌ فرددتـُها إلى النحر منها مُستهلٌ ودامعُ

على حين عاتبت المشيب على الصبا وقلت: ألَمّا أصْحُ والشيب وازعُ

ثم تخلص إلى الاعتذار

ولكن همَاً دون ذلك شاغـــــل مكان الشغاف تبتغيه الأصابـع

وعيدُ أبى قابوس في غير كنهه أتاني ودونــي راكسٌ فالضواجعُ

ثم عاد إلى الأول يشكو:

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرقش في أنيابها السمَّ ناقعُ

يُسهر في ليل التمام سليمها لحلـــي النساء في يديه قعاقـعُ

ثم اخذ في غيره ووصف الأفعى:

تتاذرها الراقون من سوء سمها تطلقه طورا وطورا تراجـعُ

ثم رجع إلى ما كان فيه وهو الاعتذار:

أتاني – أبيت اللعن– أنك لمتني وتلك التي تستكُ منها المسامِعُ

وفي هذا السياق، يمكن النظر إلى جهود القرطاجني على أنها جسر بين التقاليد الأدبية العربية الكلاسيكية والنظريات النقدية الحديثة. ويوفر تركيزه على تماسك القصيدة بأكملها والأثر النفسي الناجم عن الانتقالات من غرض إلى آخر فهماً دقيقاً يثري إدراكنا للصنعة الشعرية. حيث لا يقتصر هذا المنظور على إبراز التعقيد الفني للشعر العربي القديم فحسب، بل يقدم أيضًا رؤى قيمة للنقد الأدبي المعاصر.

وبالتالي، فإن عمل حازم القرطاجني هو خير دليل على الصلة الدائمة للنقد العربي القديم وقدرته على إثراء التأويلات الحديثة للوحدة الشعرية وتعزيزها.

ومن المغالاة القول إن هذه الأقوال شملت كل آراء العلماء والنقاد القدامى حول مفهوم الوحدة في بناء القصيدة العربية، بل هو جانب تناول أهم الملاحظات والآراء والمدلولات، وهي آراء تبدو متقاربة في الفهم أو الطرح وهي أيضًا مكملة بعضها بعضًا، فالحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية والجغرافية والدينية أيضًا حددت شكل التفكير النقدي وصبغته بصبغة خاصة، فحددت شكل القصيدة العربية وحددت كذلك طبيعة الأفكار النقدية الناشئة حولها، مع ملاحظة أن مفهوم الوحدة كان قد تطور واقترب من المفهوم الحديث عند القرطاجني بسبب التطور الطبيعي للحضارات وتراكم المعارف والعلوم التي وصلت إلى القرطاجني فبنى عليها آراءه في وحدة القصيدة.

ثانيًا – وحدة القصيدة عند النقاد المحدثين:

رأينا من خلال تتبع عدد من أبرز الآراء النقدية القديمة كيف أن مفهوم الوحدة العضوية لم يستوعب بدقة خصوصيات هذا المصطلح وما يشير إليه في مضمونه النقدي الحديث، ومع كونه غائماً بعض الشيء إلا أننا لا يمكن أن ننفي وجود البناء العضوي بصورة أو بأخرى في الشعر العربي القديم، والتعليقات التنظيرية لمصطلح الوحدة العضوية الذي أصبح يمثل معلمًا من معالم التجديد في العصر الحديث، ذلك أن النقاد المحدثين على اختلافهم في المذاهب صدروا جميعًا عن رؤية ناتجة عن الاطلاع على الآداب الغربية المعاصرة، ويؤرخ بعض النقاد للوحدة العضوية في النقد الغربي "فيرون أنها تعود إلى الرومانسيين الذين دعوا إلى هذه الوحدة في العمل الأدبي، وتابعهم في ذلك أصحاب المدارس الأخرى، وإن تفاوت فهم بعضهم لهذه الوحدة، فالرمزيون والسورياليون كانوا لا يرون بأسًا في الانتقالات النفسية المفاجئة ولكن مع المحافظة على وحدة التجربة الشعرية في الموضوع". (الشنطي، 2005: 325) ومن أهم الآراء التي

أثرت في النقاد العرب رأي الناقد الإنجليزي (كولريدج) الذي ربط بين الخيال والوحدة العضوية وبأن الخيال هو الوسيلة التي يلجأ إليها المبدع لتجميع عدة صور أو أحاسيس ليحقق الوحدة فيما بينها داخل القصيدة، وهذا من ضمن آراء كثيرة جعلت النقاد يلتفتون إلى قضية البنية في القصيدة العربية، فالوحدة العضوية هي تنظيم انفعالات وإخضاع التعدد للوحدة واستخراج النظام من الفوضى، ويبدو من أهم هذه المفاهيم للوحدة أن تكون جميع مكونات القصيدة : "بنية فنية متحدة في كيان دينامي متكامل، بنية كالشجرة النامية لا تفرقها من الجذع والأغصان والأوراق والبراعم فهي بها تكون، وبغيرها تصير حقيقة أخرى". (مكليتش وآخرون، 1966: 160).

والوحدة بهذا المفهوم وكما أفاد منها النقاد العرب المحدثون، لا تعني وحدة الموضوع التي هاجموا بها القصيدة القديمة ووصفوها بالتفكك، إنما تعني التسلسل المنطقي الذي يربط كل الأجزاء ببعضها ويشيع جوًّا نفسيًا مترابطًا ومتلائمًا مسيطرًا على العمل الشعري بأكمله، ويرى الدكتور النويهي أن "الوحدة المطلوبة لا تحجز الشاعر عن تعدد التجارب والعواطف في قصيدته، إنما يشترط أن تكون جميعها متجانسة المغزى، هادفة بتعددها إلى استجلاء وحدة في الوجود أو في موقف النفس البشرية منه". (النويهي، 1964: 117) والدكتور النويهي بذلك قد توسع في موضوع الوحدة ولم يقصرها على تجربة شعورية واحدة بل شملت عديد المشاعر والعواطف المستجلية للمواقف الإنسانية، وبذلك أعطى للمفهوم تعريفًا واسعًا يضيف إلى التجربة الشعورية الخاصة مجموع تجارب الشاعر وعواطفه. وأرى أنّ رؤية النويهي لمفهوم الوحدة العضوية يتماشى بطريقة ما مع آراء النقاد القدامى الذين أشاروا إلى إمكانية التنوع الذي يأتي تحت مظلة نفسية وشعورية تحقق التكامل والوحدة وتعكس الرؤية الشمولية .

أما الدكتور غنيمي هلال فقد بيّن أن مفهوم الوحدة الموضوعية قد تأثر بأرسطو وأن الوحدة الموضوعية هي وحدة الموضوع والمشاعر، على أن تُرتب الصور داخل القصيدة بحيث يؤدي بعضها إلى بعض، فتكون كالبنية الحية لكل جزء وظيفته، يقول: "ونقصد بالوحدة العضوية في القصيدة وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور والأفكار ترتيبًا به تتقدم القصيدة شيئًا فشيئًا حتى تنتهي إلى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن تكون أجزاء القصيدة كالبنية الحية لكل جزء وظيفته فيها ويؤدي بعضها إلى بعض عن طريق التسلسل في التفكير والمشاعر". (غنيمي، 2009: 370) وهو بهذا يؤكد على المشاعر التي تستثيرها الصور المكتملة والأفكار المترابطة في نفس المتلقي وكيف يرسمها الشاعر في قصيدته.

ويتابع الدكتور زكي عشماوي، الدكتور غنيمي هلال، في رأيه؛ إذ يرى أن "الوحدة العضوية في النقد الحديث هي وحدة الصورة ووحدة الإحساس، أو هيمنة إحساس واحد على القصيدة كلها، والوحدة العاطفية هي دليل على تحقيق الوحدة العاطفية، معنى هذا أن الصور في العمل الفني ليست إلا تجسيدًا للتجربة أو اللحظة الشعورية التي يعانيها الفنان ومن ثم فهو يرى أن الوحدة العضوية والوحدة الفنية والوحدة الشعورية مسميات لشيء واحد هو هيمنة إحساس واحد أو رؤية نفسية ذات لون واحد على العمل الفني كله".(بكار، 1979: 374) فالوحدة العضوية عند هذين الناقدين، تتمثل في وحدة الصورة التي تعبر عن وحدة الإحساس المهيمن، وكذلك تكمن أيضًا في وحدة الجو النفسي والشعوري عند المبدع وعند المتلقي، فإن استطاعت الصورة الشعرية أن تبعث إحساسًا واحدًا عند المتلقي فهي بذلك صورة ناجحة نابعة من تجربة شعورية مكتملة.

أما الدكتور شوقي ضيف في كتابه في النقد الأدبي، فكان له رأيه الخاص الذي فصّل فيه مفهوم الوحدة العضوية في القصيدة العربية، باعتبارها بنية تامة الخلق والتكوين وليست ضربًا ذات صياغة وإنما هي بناء بكل ما تحمله كلمة بناء من معنى، ويقول عن ذلك "ليست القصيدة خواطر مبعثرة، تتجمع في إطار موسيقي إنما هي بنية نابضة بالحياة، بنية تتجمع فيها إحساسات الشاعر وذكرياته، لتكون مزيجًا لم يسبق إليه من الفكر والشعور". (ضيف، 1966: 154) فالقصيدة من وجهة نظر الدكتور شوقي ضيف، عملٌ شعريُ تام وليست مجموعة أفكار تجتمع من هنا وهناك، بل هي خبرة الشاعر وأحاسيسه نجتمع في عمل فني متكامل.

وإن كان الحديث عن الوحدة العضوية يعني ويدور عند معظم النقاد عن الوحدة النفسية والشعورية، وباسم هذه الوحدة هاجم أصحاب مدرسة الديوان الشعر القديم، ونعتوه بالمتفكك وغير المترابط، وإن كان هناك من يرى أن هذه الوحدة النفسية كانت متوفرة في الشعر القديم، وقد لمس ذلك المستشرق (جوستاف جريناوم) إذ يقول: " إن هناك نوعًا من رابطة نفسية بين القفز الاستطرادي من موضوع إلى موضوع، بين هذه الانتقالات العاجلة من حال إلى حال ومن انتباه إلى آخر". (عطوان، د.ت: 232) أليست هذه الوحدة الشعورية عند الشعراء المحدثين تشبه تلك الوحدة عند القدماء؟ صحيح أن الشاعر القديم قد نظم قصيدته في عدة موضوعات، لكن تلك الموضوعات مختلفة كانت تخدم غرضه الأساسي، وتشيع في القصيدة جوًّا نفسيًّا متلائمًا، يقول عن ذلك الدكتور حسين عطوان: "الحق أن بعض القصائد ينسحب عليها من أولها إلى آخرها جو نفسي واحد، إن حزنًا فحزن، وإن فرحًا ففرح، ومنها قصيدة النابغة اللامية في رثاء النعمان، فإنه يستهلها بالنسيب، ونراه يحكم عقله وشيبه في عواطفه ويزجر نفسه ويردعها عن الشوق والصبابة". (عطوان، د.ت: 233).

لم تكن قصائد الذبياني بدعة لمن حوله، بل هناك قصائد كثيرة جدًّا تحمل وحدة الجو النفسي، يقول عن ذلك الدكتور سعيد الأيوبي: " إن الشاعر لا يقفز من قسم من القصيدة إلى قسم آخر مستأنفًا شعورًا جديدًا، لا صلة له بما مضى وما يأتي من كلامه، وإنما يحرص على استعمال أساليب التخلص من الغزل إلى وصف الناقة، ومن وصف الناقة إلى الغرض... وعبر كل هذه المراحل فإن جوًّا نفسيًّا ينتظم القصيدة من أولها إلى آخرها". (الأيوبي، 1989: 462)، وهذا ما لاحظناه في المثال السابق لحسن التخلص في قصيدة الذبياني، والانتقال السلس بين الموضوعات دون أن يشعر القارئ بانقطاع المعنى أو تصدعه.

فالشاعر الجاهلي كان يحرص على خلق تواصل شعوري بين أقسام القصيدة المختلفة، بحيث ينتظم الجوّ النفسي للقصيدة من بدايتها إلى نهايتها، ويعزز هذا الانتقال السلس بين موضوعات القصيدة المختلفة الوحدة النفسية والنسيج الداخلي للقصيدة، ومن ثمّ يحثث تماسكاً فنياً وشعورياً داخل القصيدة .

أما الدكتور يحيى الجبوري فيقول في كتابه الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، "إن محاولات الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء كانت منصبة على إبراز الترابط العضوي في الموضوع الواحد من القصيدة، لذلك فإنه يجد أن (الوحدة المعنوية) كما يسميها، تتحقق في الشعر الجاهلي في أجزاء من القصائد الطويلة في الموضوع الواحد، وتتحقق أيضاً في الشعر الذي يسرد قصة أو يصور أحداثًا بعينها، وتتحقق في كثير من القصائد القصار، وقصائد الغزل وقصائد الرثاء". (الجبوري، 1983: 264).

يعزز طرح الدكتور الجبوري فكرة أن الوحدة المعنوية تتحقق في الشعر الجاهلي عبر موضوعات معينة مثل القصائد الطويلة ذات الموضوع الواحد، والشعر الذي يسرد قصة أو يصور أحداثًا بعينها، وهذه الرؤية المعنوية المتماسكة ليست مقتصرة على الشعر الحديث فقط، بل لها جذور عميقة في التراث

الشعري العربي. وإن كان يرى الدكتور الجبوري أيضًا أنه من الخطأ والتعسف الفاحش تطبيق المفاهيم الأوربية الحديثة على الأدب القديم، مع اختلاف طبيعة كل أدب في النظرة والموضوع، فقد دخلت الأدب الحديث قيم ومفاهيم جديدة بحيث صارت الوحدة الموضوعية والعضوية ضرورة لا غنى عنها –على قلة توفرها في الشعر الحديث نفسه–، وليس كذلك الأدب القديم، وعلينا أن نتفهم الشعر القديم في حدوده وظروفه ومقاييسه في عصوره تلك.

ويطالب الأستاذ عبد الرحمن شكري بضرورة التلاحم بين أجزاء القصيدة بحيث لا يكون للبيت قيمة إلا بما يؤديه من دور بنائي في الوحدة الشاملة للقصيدة، لأن "قيمة البيت في الصلة التي بين معناه وبين موضوع القصيدة؛ لأن البيت جزء مكمل لها، ولا يصلح أن يكون البيت شاذًّا خارجًا عن مكانه من القصيدة بعيدًا عن موضوعها فينبغي أن تنظر إلى القصيدة من حيث هي شيء فرد كامل، لا من حيث هي أبيات مستقلة". (حلاوي، 1999: 349).

ومثله يفعل المازني الذي يتناول الصلة بين أفكار الشاعر ومعانيه ويطالبه بأن تكون متماسكة منسجمة مترابطة، كما عنيت جماعة أبولو أيضا بهذه القضية، ودعت جماعتها إلى مجموعة من المبادئ أهمها أن يحافظوا على وحدة فكرية شعورية؛ لأن ذلك من ألصق الأمور في القصيدة الحديثة.

أما العقاد فقد كان أكثر دقة وتحديدًا وأكثر منهجية بشأن دراسة الوحدة في القصيدة، فبعد أن نقد شعر أحمد شوقي وعابه لافتقاره للوحدة وتفككه، نجده يقول عن ابن الرومي : " بهذا الاسترسال خرج ابن الرومي عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتًا متفرقة يضمها سمط واحد، قلّ أن يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات، فخالف ابن الرومي هذه السنة وجعل القصيدة كلًّا واحدًا لا يتم إلا بتمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحاه، فقصائده موضوعات كاملة تقبل العناوين

وتنحصر فيها الأغراض ولا تنتهي حتى ينتهي مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها، ولو خسر في ذلك اللفظ والفصاحة". (بكار، 1979: 383).

وبمقارنة هذه المقولة بمقولته الأخرى التي يشير فيها إلى قصيدة مطران وإلى التجديد الذي حصل في الأدب العربي وكيف ظهرت الوحدة العضوية أو (المعنوية) كما يسميها حين يقول: "فقد أصبح للقصيدة اسم يعرف وبنية كالبنية الحية لا تسمح بتقديم بيت على بيت، وقد كانت القصيدة قبل ذلك مجموعة من الأبيات لا تتسمى باسم، ولا تتميز بعنوان" (العقاد، د.ت: 38)، يتضح مما سبق أن الأستاذ العقاد كان قد وقع عنده بعض الخلط بين وحدة الموضوع والوحدة العضوية، كما يقول الدكتور بكار: " إن نقد العقاد لقصيدة شوقي بالطريقة التي اتبعها من تقديم وتأخير في أبياتها لا يتفق مع المفهوم العام للوحدة العضوية".. ويعلل لذلك بأن السبب ناتج عن "الخلط بين النظرية والتطبيق عند العقاد في (الديوان)، وفهمه السالف للوحدة في (ابن الرومي) مدعاة إلى القول باختلاط مفهوم وحدة الموضوع بالوحدة العضوية عنده خاصة، وإلى القول بأن جماعة الديوان عامة، وشكري والمازني من قبل لم يفهموا من الوحدة إلا أنها وحدة موضوع وحسب". (بكار، 1979: 384).

ولا بدّ أن نشير إلى رأي الدكتور طه حسين الذي توصل بعد دراسة شعر لبيد إلى أن الشعر العربي قد استوفى حظه من هذه الوحدة المعنوية، وجاءت القصيدة من قصائده ملتئمة الأجزاء، قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله، وأشد ملاءمة للموسيقى التي تجمع بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية"(حسين، 1982: 32). وبذلك ردّ الدكتور طه حسين على الذين تحدثوا عن تفكك القصيدة العربية، وهو يعلل لذلك بأنهم لم يتحققوا من كامل التراث النقدي الشعري، وأن كل ما درسوه هو مقطوعات شعرية متفرقة حاكموا القصائد الكاملة على إثرها، ولو أنهم نظروا إلى القصائد كاملة لتغيرت نظرته

من جهة أخرى، تعزز دراسة مهمة تناولت ملامح الشعر العربي القديم رؤية النظر إلى الشعر من منظور اجتماعي وفهم ما ينظر إليه على أنه تفكك على أنه وحدة، حيث أشار الدكتور أبو الليل إلى أن حياة التنقل والترحال وعدم الاستقرار التي عاشتها القبيلة العربية قد انعكست على شكل القصيدة، إذ يقول: " لقد انعكست الطبيعة الجغرافية الاجتماعية في شعر تلك المرحلة، على نحو ما، تمثل في تنوع أغراض القصيدة الواحدة، ما بين المقدمات الطللية والفخر ووصف الرحلة إلى المدح، وعلى نحو ما احترف الجاهلي حياة الترحل والانتقال، آخذا من ذلك مبررا للبحث عن مصادر حياته، فإن الشاعر الجاهلي احترف أيضا الانتقال من موضوع إلى آخر"(أبو الليل، 2013: 3-7).

حقيقة لا يمكن إغفال "أن الطبيعة بنظمها هي من تتحكم بالفرد في ضوء آلياتها التي ترسم معالم الحياة في أطرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبالتالي تؤثر على الإبداع الشعري وتقرر مصيره في الحياة، إنّ إدراك هذه الحقيقة فرض على الجاهلي أن يتعامل مع نظم المجتمع ومعطياته الحياتية بوعي تام وحساسية مفرطة." (صالح، 2012: 2)؛ وهو ما يعكسه الشعر العربي القديم بوضوح من خلال تداخل موضوعاته التي تُظهر تأثير البيئة على بنية القصيدة وتعدد موضوعاتها. فكانت المقدمات الطللية، مفتاحا لما يأتي بعدها من موضوعات فخر أو مدح أو أي غرض آخر.

ومن الواضح أن مفهوم الوحدة العضوية أصبح محوريّا في تجديد الشعر العربي الحديث، حيث سعت الجهود النقدية إلى جعل القصيدة كيانًا متماسكًا لا يمكن تجزئته، ونلحظ أن الآراء السابقة تعكس تحديات التحول من الشعر التقليدي المتمثل في الأبيات المستقلة إلى القصيدة المتكاملة، وهنا يبدو أن هناك اتفاقًا بينهم على أهمية الوحدة، ولكن تطبيقها وفهمها كانا موضع جدل بين النقاد العرب.

الخاتمة

هذه بعض الآراء لأهم ما جاء به النقاد المحدثين في تعريف الوحدة العضوية وتحديد مسمياتها، ويبدو أنهم لم يتفقوا كل الاتفاق، وقد اختلفوا أشد ما اختلفوا في تحديد معنى الوحدة التي يريدونها، ومردّ هذا الاختلاف ناجم عن تفسير هذه الوحدة، وتحديد المصطلح المطلوب وما يراد منه، فاختلاف المسميات كما ورد معنا بين معنوية ونفسية وشعورية وموضوعية وعضوية أدى في النهاية إلى خلخلة في التطبيق والكشف عن نوع الوحدة المرادة.

ومع ذلك يجب أن نلتفت إلى نقطة جوهرية عند تقييم الشعر الجاهلي وانتظامه ووحدته، فمما لا شك فيه أن المفهوم السائد لعصرنا يخالف المفهوم المتعارف عليه عند القدماء للوحدة العضوية، فالشاعر الجاهلي في حديثه عن المديح يتطرق إلى موضوعات تعدّ في بناء القصيدة القديمة لازمة من لوازمها؛ لأن الشاعر المجيد في عُرف القدماء هو من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدًا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعون ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد.

وكان الشعراء يجهدون أنفسهم في تلوين أبعاد القصيدة بما يرونه مناسبًا، فيلونون زوايا الصورة، ويحشدون لها من الأصوات والحركات والأجزاء الدقيقة ما يكشف عن إمكانية استيعابها لمثل هذه الأداء الفني. كما لا يجب أن نغفل قضية أخرى لا تقل أهمية وهي: أن وحدة الموضوع التي أرادها الشاعر الجاهلي، عاشت في فكره وهو يعاني تجربته، ولازمته حتى انتهائها وهو يرتب أفكاره، ترتيبًا منطقيًّا، يفهمه عالمه الأدبي، ويستحسنه جمهوره المتابع، ويستذوقه الناقد الملتزم، وهذه الوحدة أصبحت في مفهومنا غير واضحة المعالم، تعني الانفصام الفكري لعقلية الشاعر الجاهلي عند بعض الدارسين كما

أصبحت تعني عند البعض الآخر، أن الشاعر الجاهلي كان لا يرتب أفكاره وهو ينظم القصيدة وإنما هي أبيات لها بعدها الفكري وحددودها المعنوية وإطارها الذي يحيط بها.

وربما انسحب هذا المفهوم على كثير من جوانب المجتمع العربي في العصر الجاهلي فبدا العصر مفكك الأجزاء، متباعد الذهن، لا تشد بينه أواصره، ولا يربط بين أجزائه رابط، وفي هذا المقياس الأدبي أو الحضاري أو الاجتماعي خروج عن الواقع الحقيقي الذي يعيشه العصر، وتقييم جائر له، إذ لا يصح أن نحاكم عصرًا بمعايير عصر آخر.

ومن هنا يصبح من الضروري مقاربة الشعر الجاهلي من منظور يحترم خصائصه الفريدة ومعايير تلك المرحلة. إن فرض معايير حديثة على الشعر القديم يمكن أن يؤدي إلى تأويلات مضللة، وإلى التقليل من قيمته الفنية. ولذلك، فإن فهم شعر الجاهلية يتطلب نهجًا متوازنًا ومحددًا للسياق يقدّر خصوصيته التاريخية والثقافية. ولا يقتصر هذا المنظور على إثراء فهمنا للأدب العربي القديم فحسب، بل يسد الفجوة بين النقد الأدبي التقليدي والمعاصر، ويعزز تقديرًا أعمق للوحدة الشعرية عبر العصور المختلفة.

يتضح لنا من كل ما سبق ومن خلال المقاربة بين مفهوم الوحدة العضوية قديماً وحديثاً، أن القدماء قد قدموا مستوى عميقا في الطرح النقدي، حتى وإن لم يكن واضح الحدود كما في النقد الحديث إلا أنهم استلهموه من طبيعة الشعر العربي القديم القائم على تعدد الأغراض، وما يتطلبه ذلك من التناسق بين الموضوعات، والرابط الشعوري النفسي الذي يهيمن عليها جميعها.

وفي المقابل تطور هذا المفهوم في العصر الحديث عند النقاد خاصة بعد تأثرهم بالنقد الغربي، ولم يكن هذا التطور مجرد انتقال من شكل قديم إلى آخر حديث؛ إنما جاء انعكاساً عميقاً للتغيرات البيئية

والاجتماعية والثقافية التي مرّ بها الشعر العربي الحديث، ليصبح كياناً متكاملاً يعبر عن وحدة شعورية وموضوعية، تعكس من خلالها تطور المصطلح النقدي. ولذا يجدر بنا القول إن مفهوم الوحدة العضوية يلعب دوراً في تلقي الشعر سواء القديم في تقاليده الأصيلة، أو الحديث أيضاً في توجهاته الجديدة.

المصادر

إليوت، ت . س، ماكليتش، أرشيبالد، وريتشاردز، أي. أي. (1966)، الشعر بين نقاد ثلاثة، (منح خوري، مترجم) بيروت، دار الثقافة.

أبو الليل، خالد. (2013)، نصوص عربية حديثة متنوعة، جامعة القاهرة: مركز التعليم المفتوح.

ابن أبي سلمى، زهير. (2019)، ديوان زهير بن أبي سلمى. (بعناية: حمدو طماس)، بيروت، دار المعرفة.

الأيوبي، سعيد، (1986)، عناصر الوحدة والربط في الشعر الجاهلي، الرباط، مكتبة المعارف .

العاملي، عدي بن الرقاع(1987)، ديوان عدي بن الرقاع، (نوري القيسي، حاتم الضامن، محقق)، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي .

العلوي، ابن طباطبا (1985). عيار الشعر، (عبد العزيز المانع، محقق)، القاهرة، مكتبة الخانجي .

بكار، يوسف حسين، (1979)، بناء القصيدة العربية، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر.

الجاحظ، عمرو بن بحر، (1997)، البيان والتبيين (ط 7)، (عبد السلام هارون، محقق) القاهرة، مكتبة الخانجي.

الجبوري، يحيى، (1983)، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (ط 4)، بيروت، مؤسسة الرسالة.

الحاتمي، محمد بن الحسين، (1979)، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، (جعفر الكناني، محقق) بغداد، دار الحرية للطباعة.

حسين، طه، (1982)، حديث الأربعاء (ط13)، القاهرة، مصر.

حلاوي، ناصر، (1999)، محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، الإسكندرية، دار الكتب للطباعة والنشر.

حياوي، ألحان عبدالله محمد العباجي، (2021). المنظور السردي في الشعر القصصي قراءة في نماذج من الشعر الجاهلي. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، 16 (1)، 1-24.

الدينوري، عبد الله بن مسلم، (1967)، الشعر والشعراء (ط 2)، (أحمد شاكر، محقق) القاهرة، دار المعارف.

الدينوري، عبدالله بن مسلم، (1423هـ)، الشعر والشعراء، القاهرة، دار الحديث.

الشنطي، محمد صالح، (2005)، في النقد الأدبي الحديث (ط 3)، حائل، دار الأندلس للنشر والتوزيع.

الشيباني، أبو عمرو، (2001)، شرح المعلقات التسع، (عبدالمجيد همو، محقق)، بيروت- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات .

صالح، توفيق إبراهيم. (2012). القيم في الشعر الجاهلي ضابطًا اجتماعيًّا، قيمة الكرم أنموذجًا. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، 7(1)، 1-38.

ضيف، شوقي، (1966)، في النقد الأدبي، القاهرة، دار المعارف.

الذبياني، زيد بن معاوية، ديوان النابغة الذبياني، (محمد أبو الفضل إبراهيم، محقق)، القاهدة، دار المعارف .

عبدالرحمن، نصرت، (1976)، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الحديث، عمان، مكتبة الأقصى.

عصفور، جابر، (2003)، مفهوم الشعر دراسة في التراث النقدي، القاهرة، دار الكتاب المصري.

عطوان، حسين، (د.ت)، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف.

القيرواني، الحسن بن رشيق، (1981)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، مصر، دار الجيل.

منشورات المكتبة العصرية، (د.ت)، دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، بيروت، منشورات المكتبة العصرية.

مراشدة، علي، (2006)، بنية القصيدة الجاهلية، دراسة تطبيقية في شعر النابغة الذبياني، إربد، عالم الكتب الحديث.

مندور، محمد، (1997)، النقد والنقاد المعاصرون، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر.

النويهي، محمد، (1964)، قضية الشعر الجديد، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية.

هلال، محمد غنيمي، (2009)، النقد الأدبي الحديث (ط 8)، القاهرة، نهضة مصر للطباعة.